برحيل الماغوط فقد الشعر العربي أهم بحوره الحديثة:

بدوي أحمر...ترجّل أخيراً من كوابيسه ومن جبهات الأدب ومعارك الحداثة

دمشق ـ «القدس العربي» ـ أنور بدر:

بحزن شديد ودعت مدينة دمشق شاعرها محمد الماغوط الذي استوطن الحزن والكوابيس، ودعته صباح الأربعاء في الخامس من نيسان (ابريل) الحالي جدثاً استوى على أفئدة محبيه ومريديه من الشعراء، اذ فارق الحياة قبل يومين، وقرر بذلك أن يعود الى مرقده الأخير في سلمية التي هجرها مراراً وطويلاً.

هجرها يافعاً الى مدرسة الزراعة في «خرابو» من غوطة دمشق، فلفظته العاصمة لفقره، وعاد الى سلميته التي ارتحل أو رُحل عنها ثانية الى سجن المزة العسكري بدمشق عام 1951، لكنها سرعان ما لفظته بعد خروجه من السجن الى بيروت، ومن ثم أمضى عقدين ونيف في أخرياته أعجزه فيها المرض عن زيارة بلدته، لكنه آب اليها أخيراً.. آب اليها ليمضي في هجمته الأخيرة، قصيدة من الشعر مضمخة بالندى والحزن.

ودعته دمشق لأول مرة كما يليق بالعظماء من وداع، ودعته بحضور وزيري الثقافة والاعلام، وبأكاليل من اتحاد الصحفيين واتحاد الكتاب، لكن الحضور الأهم كان لمثقفي سورية وفنانيها الكبار، لجمهور أحب محمد الماغوط وأحب شعره وكل ما كتب، فجاء لوداعه رغم المطر النيساني الذي داهم المدينة دون توقع، فبكت السماء كما بكى الحشد حين أخرج الجثمان الى عربة النقل الصحي التي سارت به الهوينى الى بلدته، وقطعت به شوارع دمشق في آخر عبور له فوقها.

وكما ترك الشاعر بلدته... خلّف وراء قضبان السجن الحزب الذي انتمى اليه حين لم يجد مدفأة تقي عظامه برد الشتاء الا في مكتب الحزب السوري القومي الاجتماعي، واستعاض عن الحزب بوريقات صغيرة للف السجائر، دوّن عليها بعضاً مما جاش في وجدانه، دون أن يدرك أنه بهذه الوريقات سيهز دعائم الأدب العربي التي استقرت عبر قرون. وأنه يجترح أفقاً لتطور قصيدة النثر... بل لتطور الحداثة الأدبية.

رحل الشاعر العربي الكبير محمد الماغوط ليفقد الشعر العربي برحيله أهم بحوره الحديثة، هو الذي خرج على البحور والقوافي كما خرج على الحزب والسياسة، وكما خرج على مدارس الحداثة الأدبية، لم يحز الشهادات، ولم يتعلم أكاديمياً، ولم يحفظ بحور الشعر العربي، لكن الحروف كانت طوع يراعه، يغرف من مدادها ليعيد تشكيل الحالات والمشاعر، يغرف من مدادها ليعيد عجن الأشياء والأفكار، يغرف من مدادها لينفخ كالحاوي في مزمار الشعر، فيطوّع الكلمات كما لم يفعل أديب في العربية من قبله وحتى الآن. يقول عنه الشاعر فاروق شوشة: «انه مبدع متفرد في الأدب والمسرح، استطاع من خلال كتاباته أن يعتصر خلاياه البدعة وخلايا الوطن بكل الأحزان والآمال والتطلعات والرفض، حالما بعالم جديد تسود فيه المحبة والانسانية».

وفي بيروت تردد آباء الحداثة في مجلة «شعر» حيال قصيدته «القتيل» فأدرك أن ما يمور بداخله أوسع من حدود تنظيراتهم، وأن أحلامه أبعد من حدود تمردهم، فخرج عنهم كما خرج عن القبيلة والحزب، وذهب يطلق كلماته مؤسساً لقصيدة النثر في كل ما كتب حتى ملّ من لفظ القصيدة، فأطلق على أشعاره الأخيرة تعبير «نصوص» مجسراً الهوة ما بين النثر والشعر، يقول الشاعر اللبناني جودت فخر الدين عن هذه التجربة «لقد حاول الكثيرون أن يجعلوا قصيدة النثر ظاهرة أو تيار أو مدرسة، فحاولوا أن ينصبوا الماغوط أو غيره رائداً/ أو روواداً/ في هذا المجال، الا أن الماغوط ظلّ حالة شديدة الفرادة في شعرنا الحديث، ظلّ لحناً شارداً لا تستوعبه جوقات العازفين من دعاة النثر ودعاة الوزن على السواء».

هذه اللغة وهذا الأسلوب كانا سمة طبعت كل نتاجات الماغوط في النثر والشعر والمسرح والدراما، وشكلت حالة كاريزما استقطبت قارئها، بل صنعته في زمن عزّ فيها القارىء، اذ تفردت في التقاط ما هو انساني ومشترك وحيّ بآن معاً.

هذه المحاولة انطلقت مبكراً في زواياه الصحفية، تلك الزوايا التي اختطت جنساً أدبياً مستقلاً باسم كوابيسه كما يقول الأديب والروائي وليد اخلاصي ففي» أعماله الشعرية والمسرحية، بالاضافة الى مقالاته التي شكلت جنساً ابداعياً جديداً اذا ما قسناها الى المقالات المنشورة بالعربية، سنجد مدى تفوق هذا الرجل علينا وعلى نفسه».

تلك المقالات التي جاءت معبأة بالهم اليومي وهم الوطن، كانت امتداداً للغة الشعرية الغنية بالمشاعر والحياة والغنية بالقدرة على الايصال والتواصل، وقد جمع قسماً من هذه المقالات في كتاب «سأخون وطني» عام 1987، والذي ظلّ حتى عام 2005 الأكثر مبيعاً في جنسه ضمن معرض بيروت الدولي للكتاب.

وربما تكون التجربة المسرحية الأغنى والأنضج في تاريخ المسرح السوري، هي تجربته المشتركة مع الفنان دريد لحام في «فرقة تشرين» التي قدمته كاتباً ناقداً وساخراً، والتي طورت الكوميديا السياسية، حين وصف الانقلابات المتعاقبة في سوريا بأنها مجرد تغيير في الطربوش، دون أي تغيير في المحتوى، وهو الذي أطلق نكتة «أن الحمار قد أكل الدستور».

شاهدنا لهما «ضيعة تشرين، غربة،كاسك يا وطن»، وحين انفضت شراكته مع دريد لحام أخرج له جهاد سعد مسرحيته «خارج السرب»، كما أخرج عن فكرة له العام المنصرم زهير عبد الكريم مسرحية «قيام .. جلوس .. سكوت « لكنها دخلت في الحالة السياسية حتى ابتعدت عن النص الماغوطي كما أكد الدراماتير محمود عبد الكريم.

وللماغوط تجربة متوازية في السينما، اذ كتب سيناريوهات أفلام دريد لحام «الحدود ،التقرير وشقائق النعمان»، كما كتب له سيناريو مسلسل «وادي المسك»، وكتب أيضاً سيناريوهات «حكايا الليل، وين الغلط، حكايا الليل والنهار» وهذا الأخير أخرجه مؤخراً علاء الدين كوكش.

وللماغوط أيضاً رواية يتيمة باسم «الأرجوحة» كتبها متسلسلة في مجلة «الناقد» التي أصدرها رياض نجيب الريس، قبل أن تصدر كرواية في كتاب.

أثرت تجربة السجن في حياة الماغوط وفي ابداعه معاً، اذ سبق وقال في لقاء لنا معه في صحيفة «القدس العربي» ان «حياته التالية وكتاباته لم تكن الا رداً على هذه التجربة، وصرخة باتجاه الحرية التي حُرم منها، لذلك تميزت كل كتاباته بالحزن والتحدي معاً، بالنقد والقلق، وبالبحث عن علامات الاستفهام المتروكة في حياتنا مدىً مفتوحاً باتجاه المستقبل.»

كما كان الماغوط جريئاً في اعلان اختلافه عن الآخر، عن الموروث والسائد، كان جريئاً أيضاً في اعلان خيبته، في اعلان يأسه، وفي طرح أسئلته الجارحة حد الصراخ.

«ضع منديلك الأبيض على الرصيف
واجلس الى جانبي تحت ضوء المطر الحنون
لأبوح لك بسرّ خطير
اصرف أدلاءك ومرشديك
وألق الى الوحل أو الى النار بكل ما كتبت من حواشي وانطباعات
ان أي فلاح عجوز
يروي لك في بيتين من العتابا كل تاريخ الشرق
وهو يدرّج لفأفته أمام خيمته
أحب التسكع والبطالة ومقاهي الرصيف ولكنني
أحب الرصيف أكثر،
أحب الغابات والمروج اللانهائية ولكنني أحب
الخريف أكثر،
أحب الشهيق والزفير ورياضة الصباح
ولكنني أحب السعال والدخان أكثر».

ولد الماغوط عام 1934 في مدينة سلمية، ورحل عن عمر يناهز الـ 72 عاماً، تاركاً مملكة من الحزن والخوف تطلّ من ابداعاته المتنوعة، وتضيء من خلال لغته الحيّة والمتميزة في الكتابة العربية.

ومن يعرف الماغوط عن قرب يدرك أنه ينتمي لبيئته البدوية باخلاص، فهو بدوي في سلوكه بدوي في جرأته، بدوي في علاقاته مع السلطة والآخر، وكان بدويا مع زوجته الشاعرة سنية صالح التي رثاها في ديوانه «سياف الزهور».لكنه كما عنون ديوانه الأخير «بدوي أحمر» بدوي أعلن الرفض وناضل من أجل الحرية.

من أهم أعماله:

1 ـ حزن في ضوء القمر ـ شعر «مجلة شعر» بيروت 1959.
2 ـ غرفة بملايين الجدران ـ شعر «مجلة شعر» بيروت 1960.
3 ـ العصفور الأحدب ـ مسرحية 1966(لم تمثل على المسرح).
4 ـ المهرج ـ مسرحية (مثلت على المسرح) 1974، طُبعت عام 1998 من قبل دار المدى ـ دمشق.
5 ـ الفرح ليس مهنتي ـ شعر «منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 1970».
6 ـ ضيعة تشرين ـ مسرحية لم تطبع» مثلت على المسرح 1973 ـ 1974».
7 ـ شقائق النعمان ـ مسرحية.
8 ـ الأرجوحة ـ رواية 1974 «نشرت عام 1974 ـ 1991 عن دار رياض الريس للنشر».
9 ـ غربة ـ مسرحية «لم تطبع ـ مثلت على المسرح عام 1976».
10 ـ كاسك يا وطن ـ مسرحية «لم تطبع ـ مثلت على المسرح عام 1979».
11 ـ خارج السرب ـ مسرحية «دار المدى، دمشق 1999 مثلت على المسرح باخراج الفنان جهاد سعد».
12 ـ حكايا الليل ـ مسلسل تلفزيوني «من انتاج التلفزيون العربي السوري».
13 ـ وين الغلط ـ مسلسل تلفزيوني «من انتاج التلفزيون السوري».
14 ـ وادي المسك ـ مسلسل تلفزيوني
15 ـ حكايا الليل ـ مسلسل تلفزيوني
16 ـ الحدود ـ فيلم سينمائي «انتاج المؤسسة العامة للسينما السورية، بطولة الفنان دريد لحام».
17 ـ التقرير ـ فيلم سينمائي «من انتاج المؤسسة العامة للسينما، من بطولة الفنان دريد لحام».
18 ـ سأخون وطني ـ مجموعة مقالات « 1987 ـ أعادت طباعتها دار المدى بدمشق عام 2001».
19 ـ مسافر عربي في محطات الفضاء ـ مقالات
20 ـ سياف الزهور ـ نصوص ـ دار المدى، دمشق 2001.
21 ـ شرق عدن غرب الله ـ نصوص ـ دار المدى 2004
22 ـ بدوي أحمر ـ نصوص ـ آخر أعماله
ـ أعماله الكاملة طبعتها دار العودة في لبنان.
ـ أعادت طباعة أعماله دار المدى في دمشق عام 1998 في كتاب واحد بعنوان «أعمال محمد الماغوط» تضمن: المجموعات الشعرية: حزن في ضوء القمر، غرفة بملايين الجدران، الفرح ليس مهنتي،ومسرحيتي: العصفور الأحدب، والمهرج ورواية الأرجوحة.

تُرجمت دواوينه ومختارات له ونشرت في عواصم عالمية عديدة اضافة على دراسات نقدية واطروحات جامعية حول شعره مسرحه.

كُرم أديبنا العاشق والمحب للوطن في دمشق 2002 بالتزامن مع صدور كتاب «حطاب الأشجار العالية». مختارات من كتابات الماغوط عن السلسلة الشهرية المجانية، كتاب في جريدة ـ اليونسكو 60 .

كما كُرم في مسقط رأسه في مدينة سلمية التي أهدته مهرجانها الشعري السنوي عام 2004، ونال عام 2005 وسام الاستحقاق في سوريا من الدرجة الممتازة بالتوازي مع الشاعر سليمان العيسى ومع الروائي وليد اخلاصي، وجرى تكريمه مؤخراً في دبي حيث حصل على جائزة سلطان العويس الثقافية.

محمد الماغوط

مثقفون ومواطنون سوريون في جنازة محمد الماغوط (القدس العربي)

.. ورحيل عبد السلام العجيلي:

بدأ بـ «جيش الإنقاذ».. وانتهى به!

شهلا العجيلي*

■ إنّه عبد السلام العجيلي، الأديب والطبيب، ورجل السياسة، والثقافة، وقبل ذلك المجاهد في فلسطين.

عام 1948 ترك عبد السلام العجيلي مقعده النيابيّ تحت قبّة البرلمان السوري، الذي كان فيه ممثّلاً عن مدينته (الرقة) والتحق بفوج اليرموك الثاني بقيادة فوزي القاوقجي، مصطحباً حقيبته الطبيّة، ودفتر الجيب الصغير، وآلة التصوير الفوتوغرافيّ، وقبل ذلك كلّه، انتماء لهويّة، والتزاماً بمسؤوليّة تجاه الأجيال، وإيماناً بقضيّة تعمل أشياء كثيرة على إخماد جذوتها كلّ يوم.

خمسون عاماً ونيّف، مرّت على الانكسار، انتقلّ فيها العجيلي من جرح إلى جرح، دون أن تبارح كتبه، وذاكرته، وأحاديثه، وقائع ما حدث هناك في فلسطين، وصور الرفاق، والكلمات الأخيرة للشهداء منهم. لكنّه آثر بعد ما يزيد على خمسة وأربعين كتاباً أن ينهي مشوار عطائه بجيش الإنقاذ، النشيد الأخير للبجعة، كما قال هو عنه في حفل التوقيع، في حلب، في 21/5/ 2005 ليكون هذا الكتاب تذكاراً منه، ومن رفاقة المجاهدين إلى هذا الجيل، والأجيال المتتالية من أبناء الأمّة العربيّة، علّه يشحن ذاكرتها الشاحبة، ويعيد من جديد رسم تصوّرات لمفاهيم النضال، والانتماء، والهويّة، لا بقلم سياسيّ براغماتي، أو كاتب رومانسيّ، وإنّما بقلم مواطن، مواطن عربيّ فحسب.

قال لي يوم حفل التوقيع بهدوء لا يبارحه الاعتزاز: أنا راضٍ تماماً أن تنتهي حياتي بجيش الإنقاذ!

لكنّ حياة المبدعين لا تنتهي بالموت، وكذلك حياة المجاهدين، فكيف بمبدع ومجاهد معاً!

في جيش الإنقاذ كانت بداية الرحلة الشاقّة والممتعة، ومعه كان راحة المحارب الأبديّة، المحارب الذي ما رمى قلماً أو بندقيّة.

وفي جيش الإنقاذ، نشيد البجعة الأخير، تتناثر صور، وآمال، وأحلام، وبنادق عبد السلام العجيلي وصبه من المجاهدين، الذين منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلّوا تبديلاً!

*كاتبة من سورية

جدل السيرة الشعبية والرواية في رواية «كسبان حتة» لفؤاد قنديل

بوشعيب الساوري*

■ تتأسس الكتابة في رواية كسبان حتة على رصد المفارقات الوجودية بين السارد والبطل في صيغة جدل يتم من طرف واحد يصوغه السارد، متخذا من التجربة الوجودية الناجحة والمثيرة لابن خاله كسبان (البطل) حافزاً يدفعه إلى البوح بتجربته الحياتية الفاشلة، على شكل مساءلة مزدوجة للبطل تروم تفسير سر نجاحه (البطل) والتصريح بفشل الذات (السارد)، ذلك الحوار الذي يتجاوز السارد والبطل إلى جدل غير معلن بين الرواية والسيرة الشعبية، وإلى إثارة مشكلة تداول وتلقي الرواية، مما جعل رواية كسبان حتة تضطلع بوظيفة ميتاروائية.

جدل السارد والبطل

يتم السرد في رواية كسبان حتة لسببين موجهين:

ـ أولهما؛ مقارنة السارد بين تجربته الحياتية وتجربة ابن خاله كسبان بطل الرواية،

ـ وثانيهما؛ محاولة السارد فهم وتفسير بعض أفعال هذا البطل الغريبة.

من ثمة ستكون رواية كسبان حتة رواية مقارنة يجريها السارد بين تجربته الحياتية المليئة بالإحباطات والخيبات وبين تجربة بطل الرواية كسبان الحافلة بالانتصارات المتواصلة والمثيرة. يقدم من خلالها تمايزا بين حكايته وبين حكايات البطل العجيبة؛ وذلك على عدة مستويات:

ـ حكاية البطل أكبر من حكاية السارد إذ غطت الرواية ككل، وغدت محل إعجاب الناس داخل القرية وخارجها، ودخلت إلى المخيلة الجماعية، وأصبحت تُروى في قصائد شعبية لشاعر محلي، يقول السارد:"لم تغب سيرته تماما عن البلد ولا عن الناس، فقد ظهرت موهبة الشعر العامي والزجل لدى شاب من أبناء القرية اسمه رضوان الروبي، لفتت نظره مغامرات كسبان فكتب عنه قصيدة أعجبت سامعيه، ثم كتبت ثانية وثالثة، وأصبحت مادة من مواد السمر، وأمسى الناس جميعا يطلبونها [....]وانتقلت إلى قرية أخرى».(ص84، ـ 87) أما حكاية السارد فلا تتجاوز إلا صفحات قليلة، ولا تستدعي أن تحكى، يقول السارد ملخصا حكايته: «هكذا سافرتُ إلى البلاد العربية الخليجية للعمل، وهكذا تزوجت من الفتاة التي لم يكن من المناسب الزواج بها، هكذا وضعت أموالي لدى اللصوص الذين وعدونا بأكبر الأرباح [...] وهكذا انتهيت إلى إدمان الدروس الخصوصية.. حتى لقد اشتريت سيارة للمرور على الطلبة، والحصول على أجور عالية لقاء الدروس المنزلية. لكن الخسائر أيضا كثيرة، فأولادنا ليسوا كما نود، وبعضهم يرسب، ومنهم أولاد يعانون من التخلف الذهني، والخلافات كثيرة مع أمهاتهم.. الحمد لله.. أنا لا أشكو، ولكن حالتك دائما تعيد إشعال النار، الكامن».(ص171).

ـ بالنسبة لكسبان يمكن الحديث عن متوالية من الحكايات وليس حكاية واحدة، بينما بالنسبة للسارد يمكن الحديث عن حكاية واحدة هي حكاية الفشل رغم التعلم والهجرة إلى الخليج وإدمان الدروس الخصوصية.

ـ إن حكاية السارد حكاية فشل، يقول السارد: « وهكذا انتهيت إلى إدمان الدروس الخصوصية.. حتى لقد اشتريت سيارة للمرور على الطلبة، والحصول على أجور عالية لقاء الدروس المنزلية. لكن الخسائر أيضا كثيرة، فأولادنا ليسوا كما نود، وبعضهم يرسب، ومنهم أولاد يعانون من التخلف الذهني، والخلافات كثيرة مع أمهاتهم».(ص، 171) بينما حكاية البطل حكاية كسب، ويبدو ذلك من خلال الاسم الذي يحمله والذي جاء على صيغة المبالغة فعلان، يقول السارد مقارنا بينه وبين البطل كسبان: «كم هو رائع ذلك المقود الذي تمسك به جيدا وتقبض به على فك حصانك، فلا ينطلق إلا حيث تريد، ولا يميل إلا تبعا لرغبتك، وإن كنت أثق أن ما بك من خصال ليس من صنعك، وطريقك ونهجك خطهما الله.. وأراد الله لي طريقا آخر..آه.. فهل جنيت من تعلمي ومؤهلي وأسفاري ودروسي ربع ما جنيت أنت؟.. أنت؟»(ص،171.)

ـ حكاية السارد حكاية عادية ومألوفة بينما حكايات البطل مليئة بالإثارة والتشويق، تتسم بالغرابة والعجائبية يقول السارد، محاولا تفسير غرابة كسبان: «ربما كانت يوم مولدك حيث قيل إنك ضحكت ولم تبك ككل الأطفال حديثي الولادة.. وإنك بصقت الماء بالسكر الذي حاولت أن تقطره جدتك في فمك، وبحثت مغمض العينين عن الثدي، وهذا في العادة لا يكون...»(ص،19.)

يعكس السرد إذن مفارقة صارخة بين تجربتين في الوجود أو بين واقعين إنسانيين، بلغة هايدجر، تجربة تأخذ الحياة ببساطة وتحقق كل ما تريد، وتجربة تعقلن هذه الحياة فلا تحصد سوى الإخفاقات والخيبات، تؤشر على مفارقة بين بطل السيرة الشعبية(في شخصية البطل) وبين البطل الروائي الإشكالي(في شخصية السارد).

جدل السيرة الشعبية والرواية

إن قارئ الرواية ليلمس منذ البداية أن السارد ينهج أسلوبا تشويقيا يشد القارئ ويستميله ويرغمه على متابعة القراءة، ويدفعه إلى البحث عن هذا السر العجيب الذي يميز شخصية كسبان، عبر انفتاح الرواية على أساليب السرد التقليدية الشفوية، يقول:"هل رأى أحد منكم مثل هذه القطعة البشرية الخشنة؟.. هل التقاها... وتعرف عليها؟ وأستشعر الغرابة في كل ما يصدر عنها من سلوك، فاخضرت في روحه فجأة حقول الدهشة».(ص. 12).

وسرعان ما يندمج القارئ في الرواية وتتبع أخبار وحكايات وأفعال بطلها الغريبة يفاجئه السارد بتساؤلات واستفهامات وتعليقات استفهامية، تؤشر على تقابل صارخ بين استفهامات السارد الإشكالية وتوتره مع واقعه، وبين البطل الذي تغيب عنده تعقيدات المثقف وأسئلته، يصل في بعض الأحيان إلى درجة المواجهة بين السارد والبطل، عبر أسئلة استفهامية يوجهها السارد إلى البطل الذي يعد المخاطب الرئيسي في الرواية، ولا يتم السرد بدونه، يقول السارد مثلا مخاطبا كسبان:"ما الذي دفع بك يا كسبان إلى عالم الأساطير والحكايات؟»(ص،18.) محاولا البحث عن الأسرار الكامنة وراء الأفعال الغريبة التي يقوم بها كسبان، يقول السارد مستغربا: «تكسر بأسنانك عشرات المسامير، وتظل داخل شوال التبن مكتوم الأنفاس نصف يوم.. وتقلب سيارة وزنها أكثر من طن، وتعبر النار لتنقذ أهل الدار المحروقة دون أن تصاب بغير ملابسك.. لا.. وألف لا... لا بد أن هناك سرا.. هل أنت أقوى حقاً، أم بالفطرة لا تزال.. أم أن يد الله عليك ومعك.. كيف يتحقق لك ذلك وتستجيب لك الأشياء».(ص 41). كما يضطلع الاستفهام برهان فهم وتفسير أفعال كسبان الغريبة:"ما زال السؤال هو كيف أصبحت ذلك المهرج والساحر، وتلك الشخصية اللافتة والغريبة؟»(ص45، .) غرابة أفعاله(البطل) جعلته ينتقل من الواقع إلى عالم الخرافة والحكاية. تلك الأفعال التي أربكت السارد ودفعته إلى التساؤل حول مدى حقيقتها أم أنها من نسج خيال الرواة. كسبان الذي يأخذ دائما الأمور ببساطة بعيدا عن تعقيدات المتعلم والمثقف، كما هي حال السارد الغارق في تساؤلاته.

إنه حوار غير معلن بين الرواية ببطلها الإشكالي الذي يعيش واقعه الإنساني بدون سند، (ويتمثل في السارد) والسيرة الشعبية ببطلها كسبان، يقول السارد: «يندفع الجميع بالضحك، قاطعين الحبل المشدود لحماس كسبان، ويفرح الأطفال وهم يتصورونه عنترة». (ص 116). حوار يرصد المفارقة بين عالم الرواية وعالم السيرة الشعبية. فإذا كان بطل السيرة الشعبية يقوم بأفعال خارقة للعادة، ويصل إلى كل أهدافه، ويحقق الشهرة، فإن بطل الرواية إشكالي يعيش في عالم خال من المساندة، يعاني الفشل والخيبة رغم التعلم والهجرة إلى الكويت، وامتهان الدروس الخصوصية.

لقد استطاع كسبان أن يحقق كل ما كان يطمح إليه وما لم يكن يطمح إليه، وتمكن في الأخير من أن ينصب عمدة في قريته، وحقق الشهرة، بينما لم يحقق السارد أبسط متمنياته، وظل غارقا في تساؤلاته وعزلته بعيدا عن الأضواء. أليس في ذلك تلميح إلى تبرير انتشار السيرة الشعبية بين أوساط كبيرة من الجماهير و«انحصار» الرواية في جمهور محدود؟

يتعلق الأمر بوظيفة ميتاروائية تتوارى وراء جدل السارد والبطل، تطرح مشكلة قراءة وتلقي الرواية وانتشارها.

يدفعنا ذلك إلى تأكيد الملاحظة التالية وهي أن فؤاد قنديل يسعى جاهدا من وراء الاشتغال على الحكاية والعجائبي والواقعية السحرية، بإظهار اليومي في غرابته الملتصقة به، إلى إثارة القارئ وشده إلى قراءة رواياته، في إطار استراتيجية غير معلنة، لتوسيع قاعدة تلقي رواياته. ذلك هو الهم الذي تضطلع به روايات فؤاد قنديل، إذ تقدم رواية تستبطن وجهة نظر حول الكتابة الروائية.

أؤكد، في الختام، أن رواية كسبان حتة لا تخرج عن عالم فؤاد قنديل الروائي الذي يتأسس على الواقعية السحرية والسرد الممتع الذي يشد انتباه القارىء بحكايات تمتح من معين شعبي محلي غرائبي. والجديد فيها هو أنها خلقت حوارا بين الرواية والتراث السردي المتمثل في السيرة الشعبية. ذلك الحوار الذي يخفي سؤالا يشغل فؤاد قنديل وغيره من الروائيين وهو: كيف نوسّع قاعدة تلقي الرواية؟

*باحث في السرد العربي

■ فؤاد قنديل، كسبان حتة، منشورات الدار المصرية اللبنانية، 2006

قطعةُ سكرٍ واحدة

فاطمَة ناعُوت*

كانت مهمتي
أن أذيبَ لكَ السكّرَ،
لكن عتمةَ السحابات
وانكسارَ العصا في يَدِ موسى
بدّلت المهامْ.
قطعةً واحدةْ
حتى يظلَّ المُرُّ مُرًّا
والنوارسُ نوارسَ
لا تخطئُها الأعينُ مع الملاكِ الصموتْ
الذي يهبطُ كلَّ مساء
كي يمسحَ دموعَ البنّاتْ.

قليلا من السُّكّر
فمرارةُ القهوة ضرورةْ
كمُعادلٍ موضوعيٍّ لكوميديا الأخطاءِ
وعبثِ العاشقين.

القهوةُ
لا بد أن تكونَ في كوبٍ زجاجيّ.
الفناجينُ الخزفيةُ مريبةْ
تحجبُ طبقاتِ لونِ البُنِّ
في قطاعِه الطولِيّ.
اللونْ
الذي يحيلُني إلى أشياءَ طيبة
مثل صوتِ فيروزَ
حين تناديَ عاقدَ الحاجبيْن
الذي عيناه العسليتانِ تستلبانِ ضوءَ الشمسْ
عندما تتخلى عن صلفِها
وتحنو على العاشقينْ
تحت الصفصافةِ المشقوقة.
مرّنْ يمناكَ
على مصافحةِ الفراشة
من دون أن تكسرَ رُسغَها،
تعلّمْ أن تقرأَ الحزنَ في عينيها
وتحت طيّةِ الجناحيْنْ
احذرْ وعيدَها
فللفراشةِ قانونْ
لا يخلو من مُرّْ
حتى ولو رفلتْ في الألوانْ.

الضرورةُ الشعريةُ
جعلتكَ تشطبُ الياسمينةَ البيضاءْ
التي كانت تنمو على سورِ الحديقةِ كلَّ مساء
في غفلةٍ من سكّانِ البيتْ،
وجعلتِ الراقصةَ الخُلاسيةَ تدورُ دون توقّفْ
في دوائرَ ثابتةِ القُطر
ضاربةً صفحاً
عن قوى الطرد
وآلامِ العصبْ،
قيودُ الخليلْ
أنبتتْ أجنحةً للهوى
فطار،
وبدّلتْ في المهامْ
فصارَ لزاماً عليكَ
أن تذيبَ السُّكرَ في كوبي
كتمرينٍ يوميّ
لكن المرارةَ كامنةْ،
ولزاماً عليّ
أن أنكفئَ على كثبِ الرملِ
في انتظارِ أن يمرَّ البحرْ.

للشعرِ ضرورةْ
وللفرارِ أيضا.

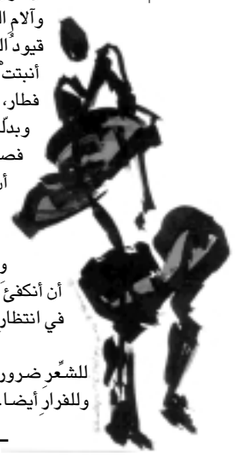

* شاعرة من مصر